الاختلاف والجدال والسبل إلى الحق

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

عبد الرحمٰن السالمي

يعرض النصُّ القرآني وتعرض تجربة النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنموذجاً ودرساً في الاختلاف والتعدّد والجدال وتذليل عقبات التواصل، وإمكانيات الوصول إلى توافقات تقرّبُ من الحقّ، ولا تعني التنازُل عنه بأي سبيل.

لقد وقعت الخلافات بين الرسول ﷺ وخصومه من قريش وأهل العقائد الأخرى الكتابية وغير الكتابية في أربعة مستويات:

المستوى الأعلى والمتصل بفكرة الوحدانية ومقتضياتها؛ فالله سبحانه ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: 54]. وقد بدا للوهلة الأولى أنّ الخلاف من هذه الناحية ليس كبيراً، لأن القرشيين كانوا يقولون عن أوثانهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، ويقول أهل الكتاب من النصارى بالأقانيم الثلاثة والإله الواحد؛ ولذا فإنّ القرآن الكريم يريد مع الطرفين نقاشاً تفصيلياً بشأن مفهوم التوحيد

والوحدانية والشرك والكفر، طالباً تحديد المفاهيم بموضوعيةٍ وإنصاف. وقد أسَّس لذلك بوضع الموحِّدين في مواجهة المشركين على قدم المساواة: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 24]. وقال للطرفين: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] (أي السموات والأرض). وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]؛ فاستوعب بذلك النزعة العقلية والطائفية القبلية المتبعة للآباء والأجداد دونما تفكير. ففي هذا المستوى جدالٌ عظيمٌ، لكنه يتأسس على قاعدةٍ واحدة وهي: التأمل العقلي في الأسباب والمسببات، وتطلب الاستقامة والنزاهة بعيداً عن الانفعال القبلي والنفسي.

أما المستوى الثاني للجدال ـ بشأن تسوية الاختلاف أو الهداية إلى طريق الحقّ ـ فيتعلّق بالنبوات والكتب والرسالات، باعتبار ذلك نهجاً لسُنّة الله ﷻ لهداية البشر وإنصافهم والعناية بهم. وقد جادل القرآن والنبي المشركين وأهل الكتاب في أمرين مترابطين من هذه الناحية: نبوة محمد ﷺ بالذات وأنه مبعوثٌ رحمةً للعالمين. والأمر الثاني: أنه خاتم النبيين، وبه تبدأ البشرية عهداً جديداً من الرشد والرشاد في ظل عناية الله ورحمته. وكان النزاع شديداً في هذا المستوى أيضاً؛ لكنّ القرآن الكريم وضع له مقاييس: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. وبذلك ـ وبعيداً عن أي جدالٍ في هذا الشأن أو في ذاك ـ صارت قضايا الوحدانية والعيش الإنساني المتساوي هي الأمور التي يجري بشأنها الجدال، وعليها يقوم التوافق على الحق.

وأما المستوى الثالث للجدال فهو مستوى رؤية العالم، أو رؤية علاقة

الإنسان بربِّه وعلاقاته بالناس والمجتمع من حوله. والقرآن يدعو الجميع إلى التماسك والتضامُن وصلة ذوي الأرحام، واللجوء إلى رحمة الله وفضله، بحيث تسلم المجتمعات من الصراعات السلطوية والمالية والحربية. وهو يستخدم مصطلح الفتنة عدة مراتٍ لينهى عن الدخول في الصراعات الداخلية المدمِّرة. ورغم الاستغلال الذي تعرضت له مقولة: «**الطاعة**» فإنّ المقاصد الدينية من وراء ذلك بدت في الأثر «**إنما الطاعة في المعروف**».

والمستوى الرابع للجدال والتنافس بشأن النموذج، دعوتهُ ﷻ ودعوة رسوله صلوات الله وسلامُهُ عليه إلى العدل والعدالة، وتجنب الظلم والظلمات في التعامل بين الدول والمجتمعات، والتعامل داخل المجتمعات ذاتها. فقد هاجم القرآن الربا، وهاجم المطفّفين، ودعا إلى الحكم بالعدل، وأنذر الأُمم والمجتمعات بالاستبدال للوصول إلى إدارةٍ أفضل وأكثر إنسانية.

وفي كل مستوىً من هذه المستويات أدار القرآن وأدار الرسول ﷺ نقاشاتٍ تفصيلية، كان غرضها الوصول إلى الحقّ، بما يحقق مصلحة الجميع ورضاهم وعيشهم الحر. وبالطبع، فإنّ الجدالات لم توصل دائماً إلى حلول، وبخاصة في الحالات التي رأى فيها الخصوم أنّ مصالحهم لن تُراعى في ظل المتغيرات الجديدة. لكنْ حتى في حالة الغَلَبة، كان من المفروض ألّا يشعر أحدٌ بالانكسار المطلق: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]؛ فالصلح والتوافق هو مآل النزاعات والحروب والجدالات؛ لأنّ «**ذوي الألباب**» ينبغي أن تعقلهم عقولهم عن التردي في مهالك الصراعات والنزاعات المقيتة والقاتلة.

ظهرت هــذه المبادئ والسياســات لمواجهــة الاختلافــات الداخلية والخارجية أيام نزول القرآن وعمل الرسول ﷺ على بناء الأُمة. ثم خاض المسلمون تجارب زاخرةً عبر عشرات القرون، عرفوا خلالها مناهج أُخرى غير تجربة الرســول والراشــدين في حلّ النزاعات. وقد ترجموا رسائل مكتوبة في ذلك عن القُدماء. وعندما ظهرت العلوم الكلامية واللاهوتية بتأثير الفلســفات والعقائــد؛ فإنّ الأطــراف المتعددة خاضــت جدالاتٍ ونقاشاتٍ بشأن المستويات الأربعة التي ذكرناها، وبالمناهج التي ورثوها عن الآباء والمؤسسين في الفلسفة أو في الدين.

لقــد كان الخيط الناظم والحائــل دون أن تتحــول الاختلافات إلى خلافاتٍ وتشرذُمٍ ـ كما يحصل اليوم ـ هو وجود الدوافع الإيمانية القوية للتوحيد والتماســك، والإصرار على حرمة الدم والعِرض والمال، بحسب ما جاء عن النبي ﷺ في خطبة الوداع.

بَيْدَ أنّ الواقع الحاضر والذي تسوده صراعات القوة والمجد بأسماء شتى، وسط المآسي التي تُصيبُ الناس، يدفع باتجاه الصيرورة لمراجعة مســائل التعدد والاختلاف وتجربة الأُمة في الاستقامة والتماسك وتقديم اعتبارات المصالح والقضايا الكبرى على ممارسات الفساد والإفساد التي نهى الله ﷻ عنها.

إنّ الاختلاف ممكنٌ وحاصل. لكنّ المســألة التــي تحول دون تحول الاختلاف إلى خلاف مدمر، هي اعتبارات النزاهة والاستقامة: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: 112]، وهي الالتزام بثوابت الدين، وثوابت القيم القرآنية.

وهذا الهمُّ أو الاهتمام كان ولا يزال بين أَولويات المجلة (التسامح + التفاهم) منذ إنشائها قبل عقدٍ ونيِّف. فالاختلاف في الرأي، والتعدد في النزاع ومصالح الفئات، كلُّ تلــك أمورٌ معتبرةٌ ومقــدَّرة. والحيلولة دون

تحول الاختلافات إلى نزاعاتٍ تقوم على مبدأين: وحدة المنزع، وإمكانية التوفيق السلمي بين المصالح المتعددة والمختلفة. وقد أنتج الفلاسفة والعلماء وأهل الرأي الإنساني الفكري والعلمي، والقائلون بالعناية الإلهية في الكون والإنسان، مبادئ وقواعد للجدال والحوار والتوافق، رغم تعدد الفئات والمصالح.

وتريد مجلة التفاهم في محورها هذا، وضْعَ الأمور في نصابها لجهاتٍ ووجوهٍ متعددة، معتمدةً النهج القرآني، وتجربة الأُمة في التاريخ، في بحث مسألة الاختلاف، والوصول إلى التوافق والتفاهم.

وبالله التوفيق...